مجلة البحث العلمي الإسلامي

مجلة إسلامية علمية محكمة

تعنى بالبحوث والدراسات الإسلامية

ISSN: 2708-1796 (ردمد النسخة المطبوعة)

E-ISSN: 2708-180X (ردمد النسخة الإلكترونية)

السنة التاسعة عشرة – العدد 59 – 30-7-2024م

Volume 19th - issue no. 59 - 30/7/2024

الصفحات: 89 - 110 Pages: 89 - 110

التَّوافق بينَ الآياتِ القُرآنيّة والآياتِ الكَونيَّة

Compatibility
Between Quranic Verses and Cosmic Verses

د. محمد الترك

Dr. Mohamad Al-Terik

اعتمادات

Email: mohamad.terik@jinan.edu.lb

د. محمد الترك

Dr. Mohamad Al-Terik

Email: mohamad.terik@jinan.edu.lb

التّوافق بينَ الآيات القُرآنيّة والآيات الكَونيَّة

Compatibility Between Quranic Verses and Cosmic Verses

المُلخَّص:

يتناول هذا البحث توافقًا وتشابهًا لآيات الله عن خلقه (الكون)، وآيات الله عن كتابه (القرآن). فالكون كتاب زاخر بالبراهين، والقرآن مليء بالآيات البينات الهاديات، التي تقدّم الإجابة الوافية والكافية للأسئلة الكبرى عن العالم والإنسان وهدايته ومصيره، والإنسان أوجده الله ليكون شاهدًا ومفكّرًا وناظرًا ومتدبّرًا لآيات الله في خلقه وكتابه.

فهناك توافق وتشابه وترابط بينهما، فآيات الله عن كتابه هي هي عن خلقه، وآيات الله عن خلقه هي هي عن كتابه، فكلّ منهما تُصدّق الأخرى، ويجمع بينهما في الدلالة على وحدانية الخالق العظيم، فتشابهت الآيات وتلاحمت في قول الله وفعل الله؛ إذ يستحيل تناقض حقيقة علمية كونيَّة مع آية قرآنية، لأنّ مَن خلق الكون، هو مَن أنزل القرآن. فكلتا الآيات في خلقه وكتابه تدلّ على وحدانيّته وربوبيّته وإلهيّته، وله وحده الخلق والأمر.

الكلمات المفاتيح:

الآيات، القرآن كلام الله، الكون خلق الله، التدبُّر للآيات القرآنيّة، النّظر إلى الآيات التّكوينيّة، التّرابط، التّشابه، التّوافق، التفكُّر، التأمُّل، والتّناسب بينهما.

The Summary

This study explores the alignment and resemblance between the verses of Allah evident in His creation (the universe) and those found in His sacred book (the Qur'an). The universe serves as a compendium teeming with evidence, while the Qur'an contains verses that offer comprehensive explanations to fundamental queries about humanity, the world, guidance, and destiny. According to divine design, humanity is crafted by Allah to observe, ponder, contemplate, and bear witness to His signs present in both the natural world and the scriptures.

An intricate harmony, similarity, and interdependence exist between these manifestations. The verses of Allah within His sacred text echo the manifestations evident in His creation, and vice versa. Each set of verses validates and complements the other, harmoniously demonstrating the unity of the supreme Creator. Consequently, these verses align seamlessly, resonating in both the words of Allah and His actions. They form an inseparable connection, making it inconceivable for a scientific fact within the cosmos to contradict a verse in the Qur'an. This coherence stems from the fact that the Creator of the universe is the very source behind the revelation of the Qur'an. Both the verses in creation and those within the sacred text unequivocally signify His oneness, mastery, and divinity, illustrating His sole authority over creation and command.

المقدِّمة:

الحمد لله ربّ العالمين، والصّلاة والسّلام على سيّدنا محمد ﷺ سيّد المرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد.

فإنّ من يتدبَّر في آيات الله، وينظر إلى خلق الله، يجد بينهما ترابطًا وتوافقًا، لأنّ التدبُّر والنّظر ينطلقان من مشكاة واحدة، ويؤدِّيان إلى نتيجة مماثلة، وهي أنّ الذي أنزل القرآن، هو الذي خلق هذا العالم، وتفسير الآيات القرآنيّة والآيات الكونيّة إنّما هي للدّلالة على وحدانيَّة الخالق وقدرته، وكشف القوانين والسّنن الإلهيَّة المنتظمة، واستخراج الحِكَم والأحكام منهما، للانسجام والتّناسب بينهما.

فالإسلام دعا النّاس للإيمان بالله تعالى من خلال التدبُّر في القرآن، والنّظر إلى الخلق، قال تعالى: ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴾ (سورة الجاثية:٦)، وقال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ (سورة النِّساء:٨٢)، وقال عزّ وجل: ﴿ إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (سورة الجاثية:٣)، وقال عزّ ذكره: ﴿ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْـَٔايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ (سورة يونس:١٠١).

فهناك آيات بيّنات منشرة، وأدلّة واضحة مبثوثة، دالّة ومرشدة لأسماعنا وأبصارنا وأفئدتنا لنعلم أنّه إله واحد، وهو على كلِّ شيءٍ قدير، وبكلِّ شيءٍ عليم، ولا توجد آيات بيِّنات إلّا في كتاب الله، أو في خلق الله، وقد تختلف التصوُّرات والرُّؤى بين حضارة وأخرى في تصوُّرها الكونيّ للعالم، تلك الرُّؤى التي تُحدِّد معالمها، وتنتهج منهجيتها، وتوجه تربيتها على أساسها، والبشريَّة مدعوة إلى النَّظر في كتاب الله وخلق الله نظرة فاحصة متأمّلة، لا نظرة عابرة قاصرة، ثمّ لتنقب في الأرض، وما حَوَت من آيات، وتكشف ما فيها من كنوز وخيرات، وينابيع للمعرفة والقوّة، لتعرف

ولتهتـدي بالأدلَّة، فتوقن بوحدانيَّة الله وقدرته، وأنّــه الإله الحق الرّازق الخالق المستحقّ للعبادة، وتصل إلى الحقيقة التي يطمئنّ إليها العقل البشري، ولترجع البصرَ كرّتين وأكثر، فإنّها ترى آيات الله تترا، وكأنّها رسائل من الله تعالى إلى أولي الألباب من خلقه، قال الشّاعر: [من الطويل]

تأمَّلْ سطور الكائناتِ فإنَّها   من المَلأ الأَعْلَى إِلَيْك رسائِل[1]

فالتدبُّر الصّحيح لآيات الله في كتابه، والنّظر الصّحيحَ إلى خلقه، يؤدِّيان إلى الحقّ واليقين. ويحملان منهجًا ربّانيًا لهداية البشرية جميعًا.

ولطالمــا كرَّر القــرآن الأمر بالنّظر والتدبُّــر والتفكُّر، ونسبَ إلى المتدبّريــن الألباب والعلم والعقــل، والقــرآن إذ يمرّ بنا في آفــاق هذا العالم، لا يقف بنا عند حدوده، بـل يتابع ويستمر حتّى ينتقــل من العالم إلــى خالقه، ومن هذه الحياة إلى مــا بعدها، ويدلل بالنشــأة الأولى على النّشأة الثانيّة.

فمَن نظر إلى هذا العالم نظرة العلماء العقلاء، يرى من الآيات ما يرى، فإنّنا لا نجد كلامًا أحاطـت كلماته بكل ما في الكون من آيـات ومشاهد، كما نجدها في كتاب الله تعالى، بل إنّنا نرى الكـون من خـلال آيات الله بصورة أجلى ممّــا نراها بأمّ العين، وقد تخفى عـن العين بعض صور الكـون ومشاهده، فنراها في القرآن بصورة أجلــى وأحلى، إذ لا أحد أعلم بهذا الخلق من خالقه، فالــذي خلقه هو الذي أنزل كتابــه، فآيات الله في كتابه هي هي في خلقه، وآيات الله في خلقه هي هي في كتابه، لا انفصال بينهما، ولا تباعد، ولا اختلاف، فالآيات في القرآن تؤكِّد وتصدّق الآيات فــي الخلــق، كما أنَّ الآيات في الخلق تؤكّـد وتصدِّق الآيات في القــرآن، فتشابهت الآيات وتوافقت وتناسبــت في كتاب الله وخلقه، ويقارن بينهمــا لاتّحادهما وتناسبهما منهجًا ومحتوى. وقد أنزلَت ووُضعَـت تلـك الآيات لتعرِّف بــالله العليَ العظيم، وتهدي إليه، فالله تعالــى قال عن كتابه: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ﴾ (ســورة الزّمــر:٢٣)، وقال تعالى عــن خلقه: ﴿ٱلَّذِيٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ (سورة السّجدة:٧).

فالأحسن جاء وصفًا لكتاب الله ولخَلق الله، وقد جاء في تعريف القرآن بأنّه الترجمة الأزلية لهـذه الكائنات، والترجمان الأبدي لألسنتها التاليات للآيات التكوينيّة، ومُفسّر كتاب العالَم؛ وكذا هو كشّاف لمخفيات كنوز الأسماء المستترة في صحائف السماوات والأرض[2]. وهذا ما نجده من الجامــع المشترك في كثير من الآيــات القرآنيّة والآيات الكونيّة التي جمعت بينهما توافقًا وتشابهًا وترابطًا، لذا جاء الأمر الإلهي للتدبُّر في الآيات القرآنيّة، والنّظر إلى الآيات الكونيّة... فما المراد بالآيات؟ وما المُراد بالتدبُّر؟ وما المُراد بالنَّظر؟

---

(١) ينظر: بدائع الفوائد، ابن قيّم الجوزيّة (ت: ٧٥١هـ)، دار الكتاب العربيّ، بيروت، ج٤، ص١٦٤.

(٢) ينظر: إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز، بديع الزمان النورسيّ (ت: ١٣٧٩هـ)، دار المحراب للطّباعة والنشر، لا تاريخ، ص١٧.

أهداف البحث:

تكمن أهداف البحث في الأمور الآتية:

١. يهدف البحث إلى تقديم منظومة معرفية تتعلق بدلالات الآيات القرآنية، والآيات التكوينية في القرآن، للإسهام في تشكيل عقلية ناضجة تضبط التوافق بين آيات الله تعالى في كتابه وآيات الله تعالى في خلقه.

٢. التأكيد على أن من أنزل القرآن الكريم هو من خلق الكون، وأنه لا تعارض ولا اختلاف بين الآيات القرآنية والحقائق الكونية العلمية التي أشار إليها القرآن الكريم.

٣. الحث على التدبر للآيات القرآنية، والنظر في الآيات الكونية لأنهما يؤديان لنتيجة واحدة وهي وحدانية الله تعالى ومعرفته من خلال كتابه وخلقه.

منهجية البحث:

تمّ تحقيق اتخاذ خطوات البحث، المنهج الاستقرائي، بجمع الآيات القرآنيّة ذات الصلة المتعلقة بالقرآن الكريم والخلق العظيم، والمنهج التحليلي وذلك بذكر أقوال أئمة التفسير التوافقية بينهما.

الدراسات السابقة:

ومع أهمية هذا الموضوع، فلم يتم الوقوف على دراسة خاصة في هذه القضية، من كتاب أو بحث أو ربما كتب فيه، ولم يتم الاطلاع عليه، بيد أنه لم تخل الإشارات إليه في أمّات كتب التفسير، أو بعض الكتابات لعلماء معاصرين.

أسباب اختيار الموضوع:

١. قلة البحوث العلميّة في موضوع الدراسة، وهذه دراسة مناسبة لطبيعة هذا البحث.

٢. أهمية العلاقة بين آيات التنزيل (القرآنيّة) وآيات التكوين في الخلق، وهما ينطلقان من مشكاة واحدة، ويصلان إلى نتيجة مماثلة، وهي أن من أنزل القران الكريم هو من خلق هذا العالم.

٣. الاهتمام بمعرفة الكون وسننه وحفظه، وأولى النّاس بدراسة الآيات الكونيّة هم من آمن بالقرآن.

خطة البحث:

اقتضت طبيعة هذا البحث تقسيمه إلى مقدمة، ومبحثين، وخاتمة.

المقدمة:

المبحث الأوّل: مفهوم الآيات والنظر والتّدبر.

المطلب الأوّل: مفهوم الآيات.
المطلب الثاني: مفهوم النظر.
المطلب الثالث: مفهوم التَّدبر.
المبحث الثاني: نماذج تطبيقية للتوافق بين الآيات القرآنيّة والآيات الكونيّة.
المطلب الأوّل: الحديث الأحسن والخلق الأحسن.
المطلب الثاني: حفظ السّموات والأرض كحفظ القرآن الكريم.
المطلب الثالث: أولو الألباب وتدبُّر القرآن والنظر إلى الخلق.
المطلب الرّابع: نزول القرآن وخلق الخلق من نِعَم الله الكبرى.
المطلب الخامس: إعراضُ المشركين عن الآيات القرآنيّة والآيات التَّكوينيَّة.
المطلب السادس: عدم تطرُّق الباطل إلى نزول القرآن وخلق الخلق.
المطلب السابع: لا تبديل لكلمات الله ولا لخَلق الله.
الخاتمة.

المبحث الأوّل: مفهوم الآيات والنظر والتّدبر

المطلب الأوّل: مفهوم الآيات:

إنّ طبيعة كلمة (آية) تحمل في طيّاتها وجوهًا ومعانيَ كثيرة، فهي تطلق ويكون لها معنى باعتبار، ومعنًى آخر باعتبار آخر، فهي حمالة معانٍ وإطلاقات متعدِّدة، فالآيات: جمع آية، وتطلق في اللّغة على معانٍ منها:

١- العلامة، ومنه قوله تعالى: ﴿أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾ (سورة الأنعام: ١٥٨).

٢- آيات القرآن، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ﴾ (سورة النَّحل: ١٠١).

٣- المعجزات، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ (سورة القمر:٢).

٤- العبرة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾ (سورة مريم:٢١).

٥- الأمر والنّهي، ومنه قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ﴾ (سورة البقرة:١٨٧).[١]

٦- النّعمة والإنذار، قال تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ (سورة يس:٤١)، «أي نعمة عليهم، وإنذارًا لهم، لأنّ في الآيات إنعامًا وإنذارًا».[٢]

٧- الأمر العجيب، ومنه قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً﴾ (سورة المؤمنون:٥٠).

٨- الجماعة، ومنه قولهم: خرج القوم بآيتهم أي بجماعتهم، أي لم يدعوا وراءهم شيئًا.

٩- البرهان، نحو قوله جلّ ذكره: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ (سورة الرّوم: ٢٢)[٣].

ويمكن أن يُضاف معنى آخر هو [آيات الخلق]، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ (سورة الجاثية:٣).

وهذه إطلاقات لغويَّة، وقد يستلزم بعضها بعضًا، وقد تطلق ويُراد بها أكثر من معنى يُعرَف من السِّياق.

أمّا الآية في الاصطلاح [الآية القرآنيّة] فعُرفت: «بأنَّها طائفة ذات مطلع ومقطع مندرجة

---

(١) ينظر: قاموس القرآن، أو إصلاح الوجوه والنّظائر، الحسين بن محمد الدامغانيّ (ت: ٤٧٨ه)، تح: عبد العزيز سيد الأهل، دار العلم للملايين، بيروت، ط٥، ١٩٨٥م، ص٦٠-٦١.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبيّ (ت٦٧١ه)، دار إحياء التّراث العربيّ، بيروت، ج١٥، ص٣٤.

(٣) مناهل العرفان في علوم القرآن، محمد عبد العظيم الزرقاني (ت: ١٣٦٧ه)، دار إحياء الكتب العربيّة، عيسى البابي الحلبي وشركاه، ج١، ص٣٣٢.

في سورة من القرآن».[١]

فالآيـة تُطلَق ويُـراد بها آيات كتابه (القـرآن)، ويُراد بها آيات خلقه (الكـون)، وجاء الأمر بتدبُّـر آيـات الكتاب، والنّظر إلى آيـات الخلق، وأحيانًا تُطلَق ويُراد بهـا المعنيِّين معًا، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَـٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾﴾ (سورة النَّمل: ٨٣-٨٤).

قـال القرطبيّ فـي تفسيره: «"بآياتنا" يعنـي بالقرآن وبأعلامنا الدالَّة علـى الحق، وقال في تفسيـر قولـه تعالى: "أكذَّبتـم بآياتي" التـي أنزلتها على رسلـي، وبالآيات التي أقمتهـا دلالة على توحيدي».[٢]

وذكـر الطّبريّ فـي تفسير قوله تعالـى: ﴿تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَـٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾ (سورة الجاثية:٦) «فبأي حديث أيّها القوم بعد حديث اللّه هذا الذي يتلوه عليكم، وبعد حججه عليكم، وأدلّته التي دلّكم بها على وحدانيّته من أنّه لا ربّ لكم سواه».[٣]

فكلّمـا ازداد الإنسان نظرًا وتدبُّرًا في آيات اللّه تعالى، ازداد علمًا وإحاطة بملكوت السّموات والأرض، وعجائـب صنـع اللّه، واتّسعت معرفتـه بكتاب ربِّه الـذي لا تنقضي عجائبـه، ولا تنتهي غرائبـه، ولا تنفد كلماتـه، وكم من الآيات لم يطّلع عليها الإنسان ولـم يُحط بها علمًا، قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ (سـورة فصّلت:٥٣)، قال الفخـر الرازيّ (ت: ٦٠٦هـ): «فاللّه تعالى مـا أطلعهم على تلك الآيات إلى الآن وسيطلعهم عليها بعد ذلك، فالعجائب التي أودعها اللّه تعالى في هذه الأشياء ممّا لا نهاية لها، فهو يطلعهم على تلك العجائـب زمانًـا فزمانًا»[٤] فكما أنّ عجائب الخلق لا نهاية لها، فعجائـب القرآن لا نهاية لها، قال تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَـٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَـٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾ (سورة الكهف:١٠٩).

والقـرآن يعرض سوره سورة سورة وآيـة آية، ويعرض مشاهد الكون مشهـدًا مشهدًا، ويضع الإنسـان أمـام تلك المشاهـد، مُعدّدًا أنواعهـا وأجناسهـا وألوانها مرحلة مرحلـة، وفي هذا قال الشّاعر: [من المتقارب]

وفي كُلِّ شيءٍ لَهُ آيَة ... وللّهِ في كُلِّ تَحْريكَة
تدلُّ على أنَّهُ واحِد ... وتسكينَة أبدًا شاهد[٥]

---

(١) المرجع نفسه، ج١، ص٣٣٢.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبيّ، ج١٣، ص٢٣٨.

(٣) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ابن جرير الطّبريّ (ت٣١٠ه)، دار ابن حزم، ١٤٣٤ه-٢٠١٣م، ج٨، ص١٣٩.

(٤) التّفسير الكبير، الفخر الرّازي (ت: ٦٠٦ه)، دار إحياء التّراث العربيّ، بيروت، ط٣، ج٢٧، ص١٣٩.

(٥) ديوان لبيد بن ربيعة، شرح الطّوسي، دار الكتاب العربيّ، بيروت، ١٤٢٤ه-٢٠٠٤م، ص٢٨٠، ويُنسَب هذا البيت لأبي النوّاس أيضًا.

وهـي تسترعـي وتستدعـي التأمُّل والتفكُّر فـي أجزائها، ما صغر منها ومـا كبر، فهي متقنة محكمـة، منتظمة الحـوادث، من تدبير خالق قديـر، تجري وفق سنن قدّرت تقديـرًا، لا تتغيّر ولا تتبدّل، هذا الانتظام والإتقان، والتّشابه والتّشاكل، في آيات الله ما أحكم منها وما تشابه وما طال منها وما قصر، وما تقدّم منها وما تأخَّر، وما أطنب فيه وما أوجز، وما نراه من الآيات في كتابه، نـراه في خلقـه، إبداعًا وإتقانًـا وصنعًا، فهو بالحق والميـزان، فيجب إعمال العقـل تدبُّرًا وتفكّرًا ونظرًا بالاتّزان والميزان.

«وآيـات الله المعتبر بها ثلاثة أقسام: قسم عام في كلّ شيء إذ حيثما وضعت نظرك وجدت آية.. وقسم معتاد غِبًا كالرّعد والكسوف ونحوه، وقسم خارق للعادة وقد انقضى بانقضاء النبوَّة».[1]

المطلب الثاني: مفهوم النَّظر

لقد حثَّنا القرآن الكريم في آيات كثيرة إلى النّظر في ملكوت السّموات والأرض، قال تعالى: ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ (سورة يونس:١٠١)، وكما قال ابن فارس: «النّون والظّاء والـرّاء أصل صحيح يرجع فروعه إلـى معنى واحد، وهو تأمُّل الشيء ومعاينتـه، ثمّ يستعار ويتّسع فيه».[2]

وجاء في لسان العرب: «النّظر: حسّ العين، العرب تقول: نظر ينظر نظرًا، وتقول نظرت إلى كذا وكذا من نظر العين والقلب، والنّظر: تأمّل الشّيء بالعين»[3].

وعـرّف الرّاغـب الأصفهانـي (ت٥٠٢هـ) النّظـر فقال: «النّظـر تقلّب البصـر والبصيرة لإدراك الشّـيء ورؤيتـه، وقد يُراد به التأمُّل والفحص، وقد يُراد به المعرفة الحاصلة بعد الفحص وهو الروية، يقال نظرت فلم تنظر أي لم تتأمل، ولم تتروّ».[4]

وقـد أرشدنـا القرآن الكريم إلـى النّظر في المخلوقات لتأمّل حكمـة الله في خلقها، «وليس المـراد مـن النّظر تقليب الحدقة نحوها فإنّ البهائم تشـارك الإنسان فيه، ومن لم ير من السّماء إلّا زرقتهـا، ومن الأرض إلّا غبرتها فهو مشارك للبهائم، في ذلك، وأدنـى حالًا منها وأشدّ غفلة، والمـراد مـن هـذا النّظر التفكُّر فـي المعقـولات والنّظر فـي المحسوسات والبحث عـن حكمتها وتصاريفها ليظهر له حقائقها».[5]

---

(١) ينظر: البحر المحيط، أبو حيّان الأندلسي (ت: ٧٤٥ه)، دار إحياء التّراث العربيّ، بيروت، ط٢، ١٤١١هـ - ١٩٩٠م، ص١٢٥؛ والدّر اللّقيط من البحر المحيط، تاج الدّين القيّسي الحنفيّ (ت: ٧٤٩ه) على هامش تفسير البحر المحيط، ج٦، ص٥٣.

(٢) معجم مقاييس اللّغة، أحمد بن فارس بن زكريّا (ت: ٣٩٥ه)، تح: عبد السّلام هارون، دار الجيل، بيروت، مادّة (نظر)، ج٥، ص٤٤٤.

(٣) لسان العرب، ابن منظور (ت: ٧١١ه)، دار صادر، بيروت، مادّة (نظر)، ج١٢، ص٢١٥.

(٤) المفردات في غريب القرآن، الرّاغب الأصفهانيّ (ت: ٥٠٢ه)، تح: محمد سيّد كيلاني، دار المعرفة، بيروت، ص٤٩٧.

(٥) عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات، زكريا بن محمد القزوينيّ (ت: ٦٨٦ه)، دار المعارف للطّباعة والنّشر، سوسة، تونس، د.ت، ص٣ و٤.

فالدّعـوة قائمـة أبـدًا للنّظر والتأمُّل في هذا الكـون وما خلق الله فيه من آيـات، فالكون هو الميـدان الأوَّل للنّظـر والاستدلال، والمصـدر الأوَّل للإيمان بخالقه ومبدعه. يقـول القائل: «سَل الأرضـ، فقُل: مَن شـقَّ أنهارَك، وغرسَ أشجـارَك، وجنى ثمارَك، فإن لم تُجبـك حوارًا، أجابتك اعتبارًا»[1]. وكتب أحمد شوقي: «سَل الشّمس مَن رفعها نارًا، ونصبَها منارًا، وضربَها دينارًا، ومَن علّقها في الجو ساعة، يدب عقربها إلى يوم القيامة»[2].

فـلا بُدَّ للعقل المسلم مـن أن يستنبط ويستخلص النّتائج من خلـق السَموات والأرض فكرًا ونظـرًا وتدبُّـرًا واعتبارًا لينسجم مع كتابه ودينه، ولا يعطل مَهمة العقل الذي أوتيها فضلًا من الله ونعمة.

فغاية النَّظر المعرفة والعلم بحقائق الأشياء وإدراكها، المؤدِّية إلى معرفة الله تعالى، وكمال قدرته، ووحدانيّته عزّ وجل، وإلّا فقد المؤمن التّوجيهات القرآنيّة، والمصادر الكونيّة، وما عرف الله حقّ معرفته، وما قدّره حقّ قدره، وتقلّب الوجه في السّماء وإن لم يكن للنّظر والاعتبار، والاستدلال على وحدانيَّة الخالق سبحانه وتعالى، فله منافع جمّة، فهو مريح لبصر الإنسان ومطمئن له، ذكر الغزالـيُّ فـي النّظر إلى السّماء عشر فوائـد: «تنقص الهمّ، وتقلّل الوسواس، وتزيل همّ الخوف، وتذكّـر بالله، وتنشـر في القلب التّعظيم لله، وتزيل الفكر الرّديئة، وتنفـع لمرض السّوداء، وتسلّي المشتـاق، وتؤنس المحبّين، وهي قِبلة دعاء الدّاعيـن».[3] فالظّاهر من الأشياء، يُدرَك بالحواس، وكأنّهـا متحدّثة عن نفسها، أو بنظـرة تحتاج إلى مزيد من النّظر والتمعُّن، فبعضها بيانها ظاهر، وبعضها يتطلَّب بالتفحّص، والتقصّي والاستدلال، فتزيل شكًّا، وتزيد علمًا.

فالتدبُّـر في كتاب الله، والنّظر إلى خلق الله، يأخذ بالإنسان إلى معرفة الله، وزيادة الإيمان بـه، وهما أفضل الطّرق لمعرفته، قال ابن قيّم الجوزيَّة: «الربّ يدعو عباده في القرآن إلى معرفته من طَريقين: أحدهما النّظر في مفعولاته: والثّاني التفكُّر في آياته وتدبّرها، فتلك آياته المشهودة، وهـذه آياته المسموعـة المعقولة، فالنّـوع الأوّل كقوله تعالـى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ (سـورة آل عمـران:١٩٠)، والثاني: كقوله: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ (سورة النساء: ٨٢)، وقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ﴾ (سورة المؤمنون:٦٨)، وهو كثير في القرآن.[4]

(١) أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني (ت: ٤٧١هـ.)، تح: محمد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت، ص٩.
(٢) أسواق الذّهب، أحمد شوقي (ت: ١٩٣٥م)، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، ١٣٩٠ه-١٩٧٠م، ص٤٢.
(٣) الحكمة في مخلوقات الله عزّ وجل، أبو حامد الغزاليّ (ت: ٥٠٥ه)، مكتبة الجنّدي، مصر، ١٩٧٢م، ص١٣.
(٤) الفوائد، ابن قيّم الجوزية (ت: ٧٥١ه)، المكتبة الثقافيّة، بيروت، ١٤٠٣ه-١٩٩٣م، ص٣٠.

المطلب الثالث: مفهوم التدبُّر:

يُعدّ التدبُّر التأمّل والتفكُّر في الكلام مرّة أو مرارًا للنّظر في عواقبه ومآلاته، قال ابن فارس: الـدّال والباء والرّاء، أصل هذا الباب أن جله في قياس واحد، وهو آخر الشّيء وخلفه خلاف قبله، والتّدبير: أن يدبّر الإنسان أمره، وذلك أنّه ينظر إلى ما تصير عاقبته وآخره».[١]

وقـال ابن منظـور (ت٧١١ هـ.): «ودبّر الأمـر وتدبره: نظر في عاقبتـه، واستدبره؛ رأى في عاقبتـه ما لم ير في صدره، والتدبُّر في الأمر: أن ينظـر إلى ما تؤول إليه عاقبته، والتدبُّر: التفكُّر فيه، ويُقال: إنّ فلانًا لو استقبل من أمره ما استدبره لهدي لوجهة أمره، أي لو علم في بدء أمره ما علمه في آخره، لاسترشد لأمره».[٢]

وقـال الجرجانـي (ت٨١٦ هـ.): التدبُّر: عبارة عن النّظر فـي عواقب الأمور، وهو قريب من التفكُّـر، إلّا أنّ التفكُّـر تصرف القلب بالنّظر في الدّليل، والتدبُّر تصرفـه بالنّظر في العواقب»[٣] فهـو فَرّق وفَاوت بين التدبُّـر والتفكُّر، فالتدبُّر تصرّف وتعقّل في خواتيم الأمور سواء أكانت قريبة أم بعيدة، بينما التفكُّر تصرف وتفهم وإدراك لحقيقة الأمور.

وقـد جاء الحثُّ والحضّ على التدبُّر في القرآن الكريم، قال ابن عطيّة في تفسيره: «التدبر: النّظر في أعقاب الأمور وتأويلات الأشياء، هذا كلّه يقتضيه قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ (سورة النّساء:٨٢)، وهذا أمر بالنّظر والاستدلال»[٤].

وأوجـب القرطبـيّ التدبُّـر، فقال: «ودلّت هـذه الآية على وجـوب التدبُّر في القـرآن ليعرف معنـاه»[٥]، فالتدبُّر يؤدّي إلى الاستدلال إلى مآلات الأمـور وكيفيّة خواتيمها لاستخلاص واستنتاج العبر مـن التّاريخ البشري وحوادثه ووقائعه، وهذا ما أرشد إليه القرآن وأوجبه، فالتدبُّر والتفكُّر، كمـا قال السّيوطيّ (ت٩١١ هـ.): «هو المقصود الأعظـم والمطلوب الأهم وبـه تنشرح الصّدور وتستنيـر القلوب، قال تعالـى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ (سـورة ص:٢٩)، وقال تعالـى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ (سورة النّساء:٨٢) وصفة ذلك أن يشغل قلبه بالتفكُّر في معنى ما يلفظ به فيعرف معنى كل آية ويتأمل الأوامر والنّواهي».[٦]

فالتدبُّـر نزعة فطريَّة، وحاجة فكريَّـة، وضرورة معرفيَّة، وفريضـة إسلاميَّة، لإعمال العقل لفهـم الآيات القرآنيّة، والسّنن الإلهية، ينميه التعليم والتعلُّم والتفكُّر والتأمُّل، كما قال ابن عطيّة:

---

(١) معجم مقاييس اللّغة، ابن فارس، مادة (دبّر)، ج٢، ص٣٢٤.

(٢) لسان العرب، ابن منظور، مادة (دبّر)، ج٤، ص٢٧٣.

(٣) التعريفات، الجرجاني، دار السرور، بيروت، لبنان، ص٢٤.

(٤) المحرّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ابن عطيّة (ت: ٥٤٦ه)، مؤسسة دار العلوم، الدوحة، قطر، ١٣٩٨هـ.-١٩٧٧م، ج٤، ص١٤٦.

(٥) الجامع لأحكام القرآن، القرطبيّ، ج٥، ص٢٩٠.

(٦) الإتقان في علوم القرآن، السّيوطيّ، المكتبة الثقافيّة، بيروت، ١٩٧٣م، ج١، ص١٠٦.

«والتدبُّـر من أسباب إنزال القرآن»[1]، فالتدبُّر يجعل من صاحبه مستحضرًا في نفسه عظمة الله عزّ وجل وقدرته في الأمور كلها، فينمي الإيمان في نسيج محكم مساحته الآيات القرآنيّة والحقائق الوجوديَّة، والتدبُّر يكون فعّالًا حينما يدفع بصاحبه إلى زيادة الهدى والإيمان بخالقه، والإكثار من ذكره ومحبته، واستخراج الأحكام والحكم من آياته في كتابه وخلقه.

فالقـرآن يجـب أن يُقرَأ بوعي واهتمام وتدبُّر، يُقرأ كأنَّـه خطاب يناديك من قرب ويوجهك، يهديـك ويشفيك، يربيك ويزكيك، يزيدك علمًا، ويفتح لك آفـاق المعرفة في العلوم كلها، فتدبره الغايـة القصوى مـن قراءته واستماعـه، «فإنّ القرآن حـوى جميع العلوم، فمن قـرأه قراءة تدبر وتفهم وعمل بمقتضاه، فقد حصّل الغاية القصوى التي ليس لأحد وراءها مرمى»[2]. فالتدبُّر أهم ثمرات القرآن العُظمى.

فتـلاوة القرآن حقّ تلاوته، تكون باللّسـان والعقل والقلب، فاللّسان يقرأ القراءة الصّحيحة، والعقـل يترجـم ويفهم ما يقرأ، وإن فتح الله عليه فقد يستنبط منه أحكامًا ومسائل، والقلب ينقاد ويمتثل ويستجيب.

فالله تعالى خلق خلقه، وأنزل كتابه، فالخلق صُنعه، والقرآن قوله، قال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ (سـورة الأعراف:٥٤)، قال ابن عطيّة: «أخذ المفسـرون (الخلق) بمعنى المخلوقات، أي هـي له كلها وملكه واختراعه، وأخذوا (الأمـر) مصدرًا من أمر يأمر، فالآية ترد على القائلين بخلق القرآن[3] لأنّه فرّق فيها بين المخلوقات وبين الأمر، إذ (الأمر) كلامه عزّ وجل».[4]

وقال القرطبيّ: «فالخلق المخلوق، والأمر كلامه الذي هو غير مخلوق».[5]

فالعالم صنع الله، والقرآن كلام الله، والله أمر في كتابه بالنّظر إلى آياته في خلقه، والتدبُّر في آياته في كتابه، فآيات الله تعالى مبثوثة في خلقه وكتابه، فهي آيات للموقنين، ونور للنّاظرين، وهُدى للقارئين، جاءت في مورد الإرشاد والاستدلال على وحدانيّة الخالق وقدرته وحكمته، وجاءت

---

(١) المحرّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ابن عطيّة، ج١٢، ص٤٥٣.

(٢) التّذكار في أفضل الأذكار، القرطبيّ، دار الكتاب العربيّ، بيروت، ط١، ص٦٦.

(٣) القول بخلق القرآن من أعظم الفتن التي تعرضت لها الأمّة الإسلاميّة، وقد تصدى العلماء لهذه الفتنة، يقول الدّارمي (ت: ٢٨٠هـ): «الذي ادّعى أولاً أنه مخلوق، هو الوليد بن المغيرة، كما أخبر الله تعالى عن الكافر دعواه، قال تعالى: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾﴾ المُدّثر. فجعل قول الله تعالى كقول البشر، وقول الجهميّة -فرقة ضالّة- وهو مخلوق واحد لا فرق بينهما».
ينظر: الرد على الجهمية، عثمان بن سعيد الدّارمي، الدّار السلفيّة، الكويت، ط١، ١٤٠٥ه – ١٩٨٥م، ص١٥٩.
وتصدّى الإمام أحمد بن حنبل -رحمه الله- للمعتزلة أيضاً، وسُجن وعُذب بسببها، وذلك أثناء هيمنة المعتزلة، حتى قيل: «ردة ولا أبا بكر لها، ومحنة لا أحمد لها» وقولهم هذا مخالف للكتاب والسنة وإجماع الأمة.
أورد الذهبي: «أنَّ ابن سحنون ناظر شيخاً معتزلياً، فقال: يا شيخ! المخلوق يذل خالقه؟ فسكت، فقال: إن قلت بالذلة على القرآن فقد خالفت قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾﴾ (فُصِلَت) وإن قال: إنه لا يذل، فقد رجع إلى مذهب أهل السنة».
ينظر: سير أعلام النبلاء، الذهبي، ٦٢/١٣.

(٤) المحرّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ابن عطيّة، ج٥، ص٥٢٨.

(٥) الجامع لأحكام القرآن، القرطبيّ، ج٧، ص٢٢٢.

تلـك الآيـات القرآنيّة كالقصـص المبثوثة في كثير من السّـور، فتارة يفصل فيهـا، وتارة يجمل، وتـارة يقدم ويؤخر، حسبما يقتضيـه السّياق والإعجاز، فلم تأتِ القصّة مرتبة ترتيب كتب التّاريخ والسّيـر، لأن ذكرهـا للعبرة والاتّعاظ، شأنها شأن الآيات الكونيّـة، فلم تذكر لتأصيل أصول علميّة ثابتـة، يقف عندها العقل الإنساني بل وردت مـورد الهدى والبيان والكشف عن آيات الله في كتابه وخلقه لمعرفتها، قال تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ (سورة فصّلت:٥٣)، وقال تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا﴾ (سورة النّمل:٩٣).

«فالتّطابـق بين حقائق القرآن، ومعارف الكون مفروض ابتداء، فإنّ منزل الكتاب هو مجري السّحـاب، ويستحيـل أن تختلـف حقيقة كونيّة وحقيقـة قرآنيّة، كما لا يختلف قـول العاقل وعمله، والواقع أنّ القرآن في الدّلالة على الله، (كون) ناطق، كما أنّ هذا الكون الضّخم (قرآن) صامت، وكلاهما ينبثق من ذات واحدة، ويهدف إلى غاية واحدة».[١]

المبحث الثاني:

نماذج تطبيقية للتوافق بين الآيات القرآنيّة والآيات الكونيّة

تبيّـن -فيما سبق- حقيقة النظر في خلق الله تعالى، والتّدبر لكلام الله تعالى، فالكون قائم علـى سنـن واحدة لا تتغيّر ولا تتحوّل، فـي تناسق دقيق، كما أنّ القرآن علـى اتّساق دقيق وتناسب بديع بين آياته وسوره لا تتبدّل ولا تختلف، ممّا يدلّ على التّرابط والتّوافق بين آيات الله في خلقه، وآيـات الله فـي كتابه وكأنّ الآيات القرآنيّـة والآيات الكونيّة شقيقتان -فـي كتاب الله- متعارفتان يمكـن الاستدلال بإحداهما أو بكلتيهما، فهي ليست صاحبتها وأختها الرَّضيعة، إنّما التّوأمان، إذا أخذتَ بأيّهما استهديت. وهذا ما سنراه من الاقتران والتّوافق بينهما، وصفاً وحقيقة في كتاب الله عزّ وجلّ.

المطلب الأول: الحديث الأحسن والخلق الأحسن

وصف الله سبحانه وتعالى كتابه بأحسن الحديث، قال عزّ وجل: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ ﴾ (سـورة الزّمر:٢٣)، «وسُمِّي القرآن حديثًا، لأنّ رسول الله ﷺ كان يحدّث به أصحابه وقومه»[٢].

ويحتمل وصفه بأحسن الحديث وجهين:

«أحدهما: فصاحته وإعجازه.

الثاني: لأنه أكمل الكتب وأكثرها إحكامًا»[٣].

وقـال تعالى عن خلقه: ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴾ (سـورة السّجدة:٧). فالأحسن جاء

(١) هذا القرآن، الشيخ محمد الغزاليّ (ت: ١٤١٦هـ)، مجلّة الأزهر، رمضان ١٤٢٣هـ -آب ٢٠١٢م، ج٩، السنة ٨٥، ص١٩٠٤.

(٢) مدارك التّنزيل وحقائق التّأويل، أبو البركات النسفيّ (ت: ٧١٠ه)، دار الكتاب العربيّ، بيروت، ج٤، د. ت، ص٢٠٧.

(٣) النكت والعيون، الماوردي (ت: ٤٥٠ه)، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط٤، ١٤٤١ه- ٢٠٢٠م، ج٥، ص١٢٢.

وصفًـا لكتاب الله، ولخلق لله... فالذي وصف القرآن أحسن الحديث، وصف الخلق ﴿ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥۖ﴾ (سورة السّجدة:٧).

فالقـرآن الكريم هو خير الكلام وأعظمه وأصدقه وأكمله وأفضله، فلا أحسن منه ولا أكمل، فهـو آخر وحـي الله وأعظمه منزلة، وأحسنـه في أبواب الدّين أثـرًا، وهو سنام الكتـب السّماويّة والمهيمـن عليها ومصداقها، قال الألوسـيّ في تفسيره: «والاستشهاد على أحسنيّته فلكونه ممّن لا يتصـوّر أكمـل منه، بل لا كمال لشيء مـا، في جنبه بوجه، وأما أن مثله لا يمكـن أن يتكلم به غيره سبحانه فلمكان التناسب، لأنّ أكمل الحديث إنّما يكون من أكمل متكلم ضرورة».[١] وقال البقاعيّ في تفسيره: «ولولا أنّه هو الذي نزّله لما كان الأحسن».[٢]

وكل مـا خلـق الله تعالى يتجلّى فيه الإحسـان والإتقان، فقدّره الله تقديـرًا، لا زيادة فيه ولا نقصـان، وصـدق الله تعالـى: ﴿ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٖ﴾ (سـورة السّجـدة:٧)، فالله تعالـى حسّن كلّ شيء خلقه فـي الوجود، بالإتقان والإحـكام، وكما فسّره ابن عبّاس رضي الله عنهما: «من حيث التّشكيل والتّصوير، وشقّ المشاعر، وتهيئة المدارك، وإفاضة المعانـي، ولمـا كان الحيوان أشـرف الأجناس، وكان الإنسـان أشرفه، خصّـه بالذّكر ليقوم دليل الوحدانيّة بالأنفس كما قام قبل بالآفاق».[٣]

فـالله تعالى خلق الإنسان في أحسن صـورة، قال سبحانه: ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ﴾ (سـورة التّيـن:٤) «مزيّنًا بالعقـل، مؤدّيًا للأمر، مهديًّـا بالتّمييز، مديد القامـة، فليس لله تعالى خلـق أحسـن من الإنسان، فإنّ الله خلقه حيًّـا عالمًا، قادرًا مريدًا متكلمًـا، سميعًا بصيرًا، مدبرًا حكيمًا»[٤].

فلو تدبّرت فيما أنزل الله، أو نظرت فيما خلق الله، فإنّك تجد أنّهما جاءا من طريق واحدة، وتشابهـا فـي الإتقان والإحكام «إنّ هذه المعاني تتسق في السّورة كما تتسق الحجرات في البنيان. وإنّهـا لتلتحـم فيها كما تلتحم الأعضاء في جسم الإنسـان، فبين كلّ قطعة وجارتها رباط موضعي مـن أنفسهما، كما يلتقي العظمان عنـد المفصل ومن فوقهما تمتد شبكة من الوشائج تحيط بهما عن كثب، كما يشتبك العضوان بالشّرايين والعروق والأعصاب، ومن وراء ذلك كله يسري في جملة السـورة اتّجاه معيَّن، وتـؤدّي بمجموعها غرضًا خاصًّـا، كما يأخذ الجسم قوامًـا واحدًا، ويتعاون بجملته على أداء غرض واحد، مع اختلاف وظائفه العضويَّة».[٥]

---

(١) ينظر: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، الألوسي (ت: ١٢٧٠هـ)، دار إحياء التّراث العربيّ، بيروت، ج٢٣، ص٢٥٨.

(٢) نظم الدّرر في تناسب الآيات والسّور، البقاعيّ (ت: ٨٨٥ه)، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط٢، ١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م، ج٦، ص٤٣٨.

(٣) المصدر نفسه، ج٦، ص٥٢.

(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبيّ، ج٢، ص١١٤.

(٥) النّبأ العظيم، محمد عبد الله دراز (ت: ١٣٧٧ه)، دار الرسالة العالميّة، دمشق، ١٤٣٠هـ-٢٠٠٩م، ص١٣٤.

«وإذا تأمَّلتَ القرآن لا ترى شيئًا من الألفاظ أفصح ولا أجزل ولا أعذب من ألفاظه، ولا ترى نظمًا أحسن تأليفًا وأشد تلاؤمًا وتشاكلًا من نظمه، وأمّا المعاني فلا خفاء على ذي عقل أنّها هي التي تشهد لها العقول بالتقدُّم في أبوابها، والترقّي إلى أعلى درجات الفصل من نعوتها وصفاتها.. واعلم أنّ القرآن إنّما صار معجزًا لأنّه جاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظوم التّأليف مضمنًا أصح المعاني».[١]

وهذا عمر بن الخطّاب رضي الله عنه، لما وقع القرآن في سمعه قال: «ما أحسن هذا الكلام وأكرمه»[٢]، وروت السيّدة عائشة رضي الله عنها: كان رسول الله ﷺ يقول: اللهمّ كما أحسنتَ خَلقي فحسِّن خُلُقي».[٣]

فتبارك الله أحسن الخالقين، الذي نزّل أحسن الحديث على الإنسان وللإنسان الذي خلقه الله في أحسن صورة وفي أحسن تقويم، ليكون أحسن المخلوقين قولًا وعملًا، وإبداعًا وابتكارًا، وتدبُّرًا لكتابه، ونظرًا إلى خلقه، واكتشافًا ومعرفة لآياته في كتابه وفي خلقه. وبهذا يظهر التّعاضد المبين بين آيات الله في الكون العظيم، وآيات الله في كتابه الحكيم.

المطلب الثاني: حفظ السّموات والأرض كحفظ القرآن الكريم.

قال تعالى عن كتابه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (سورة الحجر:٩).

لقد تولّى الله عزّ وجلّ حفظ كتابه، فلم يحفظ كتاب -أُنزل- كالقرآن، حُفِظَ بالصّدور قبل السّطور ولا يزال ولن يزالَ، قال الطّبريّ في تفسيرها: (وإنّا للقرآن لحافظون من أن يُزادَ فيه باطل ما ليس منه، أو ينقص منه ما هو منه، من أحكامه وحدوده وفرائضه)[٤]، فحفظ الله سبحانه كتابه وجعله محفوظًا من أي خلل أو تحريف أو ضياع، ولا نزال نرى ونسمع أطفالًا في السّابعة من أعمارهم وأقل، من جنسيات عربيّة وغير عربيّة، تحفظ القرآن غيبًا عن ظهر قلب، وإن هذا من آيات الله الكبرى الدالّة على حفظ كتاب الله بتهيئة هؤلاء واصطفائهم لهذا التّكريم الإلهي.

وقال تعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ (سورة البقرة:٢٥٥)، وقال سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ (سورة الأنبياء:٣٢)، ذكر القرطبيّ في تفسيرها: (أي محفوظًا من أن يقع ويسقط على الأرض، دليله قوله تعالى: ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ (سورة الحج:٦٥) وقيل محفوظًا بالنّجوم من الشياطين، وقيل: محفوظًا من الهدم والنّقض، ومن أن يبلغه أحد بحيلة، وقيل: محفوظًا فلا

(١) ينظر: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، للرمّاني والخطّابي والجرجاني، دار المعارف بمصر، ط٣، ص٢٧.

(٢) السّيرة النبويَّة، ابن هشام المعافريّ (ت٢١٣ه)، شركة الطّباعة الفنيّة المتّحدة، ج١، ص٢٩٦.

(٣) المسند، الإمام أحمد بن حنبل (ت: ٢٤١ه)، المكتب الإسلاميّ، بيروت، ج٦، ص٦٨.

(٤) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ابن جرير الطّبريّ، ج٨، ص١٢.

يحتاج إلى عماد..)[1]. وقال ابن كثير (ت٧٧٤ هـ.): «عاليًا محروسًا أن يُنال»[2]، وعمّم ابن عطيّة هـذا الحفظ، فقال: «والحفظ هنا عام في الحفظ من الشياطين ومن الوهى والسّقوط وغير ذلك من الآفات»[3] ممّا علمنا وما لم نعلم.

قال تعالى: ﴿ءَأَنتُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُۚ بَنَىٰهَا﴾ (سورة النّازعات: ٢٧)، وقال سبحانه: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا﴾ (سـورة الشمس:٥). قال الشيخ محمد عبده في تفسيره: «السماء لما علاك، وارتفع فوق رأسك، وأنت إنما تتصور عند سماعك لفظ السماء هذا الكون الذي فوقك، فيه الشمس والقمر وسائر الكواكب تجري في مجاريها وتتحرك في مداراتها، هذا هو السماء، وقد بناه الله: أي رفعه، وجعل كل كوكب منه بمنزلة لبِنة من بناء أو سقف أو قبّة أو جدران تحيط بك، وشدّ هذه الكواكب بعضها إلى بعض برباط الجاذبية العامة، كما تربط أجزاء البناء الواحد بما يوضع بينهما مما تتماسك به».[4]

فهي آية تستثير ضمائر الغافلين، للتفكير في حياتهم وواقعهم، وأنّهم في عالم محفوظ ممسوك، فالإنسان أحوج ما يكون إلى الإيمان حين تضطرب به السبل، والمعرفة إلى أنّ الله خلق هذا الكون منظمًا غاية التنظيم والإتقان، وجعل التوازن أساس الوجود للحفاظ على الأشياء كما أرادها الله تعالى، وأنّ الله تعالى حفظ القرآن الذي أنزله، والكون الذي خلقه، ليحفظ على الإنسان دينه ودنياه، قال تعالى: ﴿قُلۡ مَن يَكۡلَؤُكُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ (سورة الأنبياء:٤٢)، وقال عزّ وجلّ: ﴿وَيُرۡسِلُ عَلَيۡكُمۡ حَفَظَةً﴾ (سورة الأنعام:٦١). فحفظُ العالم بما فيه من سنن الله الكبرى، كما أن حفظ القرآن من أن يزاد فيه أو ينقص من سنن الله العظمى.

المطلب الثالث: أولو الألباب وتدبُّر القرآن والنظر إلى الخلق.

قليل من الناس مّن يتدبر فيما ينبغي له أن يتدبّره، أو ينظر فيما يوجب النظر إليه، والآيات مبثوثة في كتاب الله المسطور والمنظور، قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ (سورة ص:٢٩).

ذكر القرطبيّ في تفسيرها: «وفي هذا دليل على وجوب معرفة معاني القرآن»[5]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٩٠ ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ (سورة آل عمران: ١٩٠-١٩١)، فأصحاب «العقول التامة الذكية التي تدرك الأشياء بحقائقها على تجلياتها،

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبيّ، ج١١، ص٢٨٥.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (ت: ٧٧٤)، طُبِع بدار إحياء الكتب العربيّة، عيسى البابي الحلبي وشركاه بمصر، ج٣، ص١٧٧.

(٣) المحرّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ابن عطيّة، ج١٠، ص١٤٤.

(٤) تفسير جزء عمّ، الشيخ محمد عبده (ت: ١٣٢٣ه)، مطبعة محمد صبيح بميدان الأزهر، ١٣٨٧ه-١٩٦٧م، ص٩٣-٩٤.

(٥) الجامع لأحكام القرآن، القرطبيّ، ج١٥، ص١٩٢.

أي يفهمون ما فيهما من الحِكم الدالَّة على عظمة الخالق وقدرته وعلمه وحكمته واختياره ورحمته»[1]، والتفكُّر هنا عطف على ذكر الله في الأحوال كلها، فجمعوا بين التفكُّر والذِّكر وهو من أفضل الأعمال.

فالتدبُّر الذى يجدي نفعاً وله أثره وثمرته جدير بأولي الألباب وهم العلماء الذين ينظرون للأمور ببصائرهم، يرون ويشهدون نتيجة لتدبُّرهم أنّ ما أنزل الله هو الحق، قال تعالى عنهم: ﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلۡحَقَّ ﴾ (سورة سبأ:٦)، فتدبُّرهم هداهم إلى أنّ القرآن هو الحق الأكبر، وكل حق يكتشفه الإنسان في آيات الله، في كتابه أو في خلقه، فهو حق من ذلك الحق الكبير، فالقرآن أنزله الله «ليتفكَّروا في آياته التي من جملتها هذه الآيات المعربة عن أسرار التّكوين والتّشريع»[2]، وحينئذ «تتصادق التكوينيّة وتتوافق الأدلة السمعيّة والعقليّة»[3]، فأصحاب القلوب المجلوة، تتجلى لهم آيات الله تعالى المنصوبة في خلقه والمسطورة في كتابه، وهي الحق، وأولو الألباب أحقّ الخلق وأسبقهم إلى إدراك هذه الحقائق.

المطلب الرابع: نزول القرآن وخلق الخلق من نعَم الله الكبرى

قال تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ (سورة الأنعام:١)، وقال تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ وَلَمۡ يَجۡعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ﴾ (سورة الكهف:١).

فنزول الكتاب من نِعَم الله الكبرى على عباده، وهو كخلق السّموات والأرض من النِّعَم الكبرى على خلقه، فالنّعمتان العظيمتان تُثبتان وجوب استحقاق الحمد كلّه لله عزّ وجل لا شريك له، قال الطّبريّ في تفسيره: «أخلصوا الحمد والشّكر للّذي خلقكم أيّها النّاس، فإنَّه المستوجب عليكم الحمد بأياديه عندكم ونعمه عليكم».[4] وقال الزّمخشري (ت٥٣٨ه): «لقّن الله عباده وفقّههم كيف يثنون عليه ويحمدونه على أجزل نعمائه عليهم وهي نعمة الإسلام، وما أنزل على عبده محمدﷺ من الكتاب الذي هو سبب نجاتهم وفوزهم».[5]

فالقرآن الكريم نعمة خالدة باقية ما بقيت السّموات والأرض، لا تنقضي عجائبه كما لا تنقضي عجائب السّموات والأرض، ولا يخلق على كثرة الرد، كالسّموات والأرض.

وذكر البيضاوي (ت: ٦٨٥ هـ) في تفسيره: «رتب استحقاق الحمد على إنزاله تنبيهًا على أنّه أعظم نعمائه»[6]، ونِعَمُ الله لا تُعدّ ولا تُحصى، فهي متعدِّدة ومختلفة ومتتالية، وله سبحانه

(١) ينظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ج١، ص١٨٣.

(٢) روح المعاني، الألوسي، ج٢٣، ص١٩٩.

(٣) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، أبو السّعود (ت: ٩٨٢ه)، دار إحياء التّراث العربيّ، بيروت، ج٢، ص١٣٠.

(٤) ينظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ابن جرير الطّبريّ، ج٧، ص١٨٣.

(٥) الكشّاف، الزّمخشري (ت: ٥٣٨ه)، دار الفكر للطّباعة والنّشر والتوزيع، بيروت، ١٣٩٩ه-١٩٧٩م، ج٢، ص٤٧١.

(٦) أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل، ناصر الدّين البيضاوي (ت: ٦٨٥ه)، مكتبة ومطبعة المشهد الحسيني، القاهرة، ج٢، ص٢.

الحـقّ بالحمد لـكلّ نعمة أنعم بها على خلقه: «فإن قيل: فقد افتتح غيرها بالحمد للّه وكان الإقراء بواحـدة يغني عن سائره، فيقـال: لأنّ لكل واحدة منه معنى في موضعه لا يؤدّي عنه غيره من أجل عقـده بالنِّعم المختلفة»[1]، فاللّه تعالى هو المُنعم، أوجد بيـن المخلوقات توازنًا وتناسبًا، فكلّ ما فـي الكـون يشكّل حلقات مترابطة ومتناسقة يتأثّر بعضها بالبعض الآخر، وله دور ووظيفة مقدّرة له، بانتظام دقيق وإتقان متين، وبدء ذكر النِّعَم أن تنسب وتسند إلى المُنعم أوّلًا وهو اللّه سبحانه وتعالـى، فهـو المُنعِم ابتداءً وانتهاءً ومن قبل ومن بعد، والاهتداء بهـذه الآيات «من اللّطف الإلهي المشـرق عليه من بروج الرّحمـة عند مشاهدة الآيات التكوينيَّة والتنزيليَّـة والتّوفيق للاهتداء بها إلى الحق».[2]

المطلب الخامس: إعراضُ المُشركين عن الآيات القرآنيّة والآيات التَّكوينيَّة.

قـال تعالى عن موقـف المشركين من الآيـات الكونيّـة: ﴿وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ (سـورة القمـر:٢)، وقـال تعالى عن الآيـات القرآنيّـة: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ (سـورة النّمـل:١٢). تبيِّن الآيات موقف أهـل الضّلالة العنيد من نزول الآيات القرآنيّة أو رؤية الآيات الكونيّة، فقولهم هذا عمل السّحر، والسّحر لا يتضمن من البراهيـن الشّرعيَّة والحقائـق الكونيّة تلك التّوجيهات الراقية التي ترفـع المجتمع وتنهض به في المجـالات كافّـة «فهذا قولهم كلّما رأوا آية ولما كانت الآيات متوالية متواصلة، فقد قالوا إنّه سحر مستمر لا ينقطع، معرضين عن تدبُّر الآيات وحقيقتها، معرضين كذلك عن دلالتها وشهادتها»[3].

فالإعراض دأبهـم وديدنهم مع الآيـات وكثرتها، كما قـال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ (سـورة يوسـف:١٠٥). «وكـم من آيـة فـي السّموات والأرض للّه، وعبرة وحجّة، يعاينونهـا فيمرّون بها معرضيـن عنها، لا يعتبرون بهـا، ولا يفكّـرون بها، وفيما دلّت عليـه من توحيد ربّهـا، وأنّ الألوهية لا تنبغـي إلّا للواحد القهّار الـذي خلقها وخلق كلّ شـيء فدبرّها»[4] فإعراضهم ليس له ما يبـرّره، قال تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ﴾ (سـورة المدثر:٤٩) فإعراضهم عن القـرآن عنادًا وجحودًا واستكبارًا: «فأي شيء حصل لهم معرضين عن القرآن مع تعاضد موجبات الإقبال عليه، تأخذ الدّواعي إلى الإيمان بـه»[5] فكلّمـا جاءت آية صدقت أختها، وكلما رأوا آية أكدت ما قبلها وهم غافلون عن آيات اللّه في كتابه، وعن آيات اللّه في خلقه، وهم يشاهدونها كلّ يوم، لكنّهم لا ينظرون ولا يتدبّرون.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبيّ، ج٦، ص٣٨٤.

(٢) روح المعاني، الألوسي، ج٢٣، ص٢٥٧.

(٣) في ظلال القرآن، سيّد قطب (ت: ١٣٨٥هـ)، دار إحياء التّراث العربيّ، بيروت، ط٧، ١٣٩١هـ -١٩٧١م، ج٧، ص٦٤٧.

(٤) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ابن جرير الطّبريّ، ج٨، ص٩٧.

(٥) روح المعاني، الألوسي، ج٢٩، ص١٣٣.

المطلب السادس: عدم تطرُّق الباطل إلى نزول القرآن وخلق الخلق

قال تعالى عن كتابه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ (سورة فصّلت:٤١-٤٢)، وقال سبحانه عن خلقه: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا﴾ (سورة ص:٢٧)، فهذا كتاب الله، وهذ خلق الله، فليس للباطل عليهما من سبيل، أي «لا يستطيع ذو باطل بكيده تغييره بكيده، وتبديل شيء من معانيه عما هو به»[١]، وقال ابن عطيّة: «لا يأتيه الباطل من جهة من الجهات»[٢]. أمّا ابن كثير فقال: «ليس للبطلان عليه سبيل لأنّه منزل من ربّ العالمين»[٣].

فلا تطرق بباطل إلى كتاب الله، ولا إلى خلق الله، «وهذا يدلّ على أنّ إله العالم ما خلق هذا العالم ليبقى مخلدًا سرمدًا، بل إنّما خلقه ليكون دارًا للعمل، ثمّ إنّه سبحانه يفنيه ثمّ يعيده، فيقع الجزاء في الدّار الآخرة»[٤] وقال الطّبريّ: ما خلق الله السّماء والأرض عبثًا ولهوًا، ما خلقناهما إلّا ليعمل بطاعتنا، وينتهي إلى أمرنا ونهينا»[٥] لم يكن باطلًا، ولم يقم على الباطل، وإنّما كان حقًّا، وقام على الحق، قال في الظّلال: «إنّ شريعة الله طرف من ناموسه في خلق الكون، وإنّ كتابه المنزّل بيان للحق الذي يقوم عليه النّاموس.. وإنّ الانحراف عن شريعة الله هو انحراف عن النّاموس الكوني الذي قامت عليه السّماء والأرض، وهو أمر عظيم، وشر كبير، واصطدام مع القوى الكونيّة الهائلة لا بدّ أن يتحطّم في النّهاية ويزهق، فما يمكن أن يصمد ظالم باغ منحرف عن سنّة الله وناموس الكون وطبيعة الوجود»[٦]. وفي هذا قال سبحانه عن كتابه: ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾ (سورة الإسراء:١٠٥)، وقال عزّ وجل عن خلقه: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ (سورة الحجر:٨٥). «فالحق مادّته، والحق غايته، ومن الحق قوامه، وبالحق اهتمامه، الحق الأصيل الثّابت في ناموس الوجود، والذي خلق السّموات والأرض قائمين به، متلبّسًا بهما، والقرآن مرتبط بناموس الوجود كلّه، يشير إليه ويدل عليه وهو طرف منه، فالحق سداه ولحمته، والحق مادّته وغايته»[٧]، وبهذا يتراءى الحق في خلقه العظيم وكتابه الحكيم.

المطلب السابع: لا تبديل لكلمات الله ولا لخَلق الله.

قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾﴾ (الأنعام) «بالحجج والبراهين لما يعرف كل من تأمل فيها، ﴿لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ هذا تفسير

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ابن جرير الطّبريّ، ج٢٤، ص١٥٣.
(٢) المحرّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ابن عطيّة، ج١٣، ص١٢٣.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ج٤، ص١٠٢.
(٤) التّفسير الكبير، الرازيّ، ج٢٨، ص٣.
(٥) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ابن جرير الطّبريّ، ج٢٣، ص١٨٦.
(٦) ينظر: في ظلال القرآن، سيّد قطب، ج٧، ص٩٨.
(٧) المصدر نفسه، ج٥، ص٣٦٤.

التمـام أنهـا تمت تماماً لا يرد عليهـا النقض ولا الجَور ولا الخُلف ليسـت ككلمات الخلق»[1]، وقال تعالـى عن خلقـه: ﴿لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِ﴾ (سورة الرّوم: ٣٠)، قال الطّبـريّ: «لا تغيير لدين الله، أي: لا يصلـح ذلـك، ولا ينبغـي أن يفعل»[2]. وقال كذلك: «لا مغيّر لما أخبـر في كتبه أنّه كائن من وقوعـه في حينه وأجله الذي أخبر الله أنّـه واقع فيه، وذلك نظير قوله جلّ ثناؤه: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُواْ كَلَٰمَ ٱللَّهِۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمۡ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبۡلُ﴾ (سـورة الفتـح:١٥)[3]، وقال أبو حيّـان (ت٧٥٤ هـ.): «لا تبديل لخلق الله أي لا تبديل لهذه القابلية مـن جهة الخالق»[4]، وقد قال رسول الله ﷺ: «ما من مولودٍ إلّا يولَدُ على الفطرة».[5]

فـلا تبديـل لكلمات الله، ولا لخلقـه، ومن الذي يستطيـع أن يبدّل أو يغيّر فـي تلك القوانين والسّنن الكونيّة والخلقيّة التي حفظ الله بها الوجود، ولماذا؟ أيوجد من نقصٍ بحاجة إلى إتمامه، أو مـن خلـلٍ بحاجة إلى إصلاحه، لا، فتبارك الله أحسـن الخالقين، وتبارك مَن أنزل الكتاب على عبده ولم يجعل له عوجًا، قال الشّيخ محمد دراز: «أليست مطاوعة تلك الأحداث الكونيّة ومعاونتها بدقّـة دائمًـا لنظام هذه الوحـدات البيانيّة، شاهدًا واضحًـا على أنّ هذا القـول وذاك الفعل كانا يجيئـان مـن طريق واحدة، وإنّ الذي صدرت هذه الكلمات عن علمـه، هو نفسه الذي صدرت تلك الكائنات عن مشيئته».[6]

وختامًـا لا ولن يتوقف الاهتمـام بتدبر القرآن والنظر إلى الأكـوان، فالفهم الإنساني للنص القرآنـي يتنامـى كلما زادت قدراتـه واتسعـت ادراكاته، كمـا أن النظر العقلي كذلـك إذا واصل مسيرتـه العلمية، ستتجلى له مزيدًا من آيات الله في خلقـه وتأتي نتائجها موافقة ومطابقة لآيات الله فـي كتابه. وتبقـى تلك الحقيقة الثابتة والمؤكدة، وهي التكامـل والتشاكل والتطابق والتوافق، بيـن آيـات الله في خلقه، وآيات الله في كتابـه، وسترى البشرية مزيدًا من التـلاؤم بينهما، وهما مصدر الهداية والمعرفة للإنسانية، وفي هذا دعوة للتدبر وللنظر، لنا، ولمن يأتي من بعدنا، فهما مصدر التحولات الفكرية والعلمية، وعسى أن يأتي الأواخر بما لم يأت به الأوائل، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

---

(١) تأويلات أهل السّنّة، أبو منصور الماتريديّ، مؤسسة الرسالة ناشرون، تح: فاطمة يوسف الخيمي، ط١، ١٤٢٥هـ – ٢٠٠٤م، ج٢، ص١٦٥.

(٢) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ابن جرير الطّبريّ، ج٢١، ص٥٠.

(٣) المصدر نفسه، ج٨، ص١٤.

(٤) البحر المحيط، أبو حيّان الأندلسي الغرناطي (ت: ٧٤٥هـ)، دار إحياء التّراث العربيّ، بيروت، ط٢، ١٤١١هـ-١٩٩٠م، ج٧، ص١٧٢.

(٥) صحيح البخاري، كتاب التّفسير، باب: لا تبديل لخلق الله، رقم (٤٧٧٥)

(٦) النّبأ العظيم، محمد عبد الله دراز، ص١٣٥.

الخاتمة

لقد سعى هذا البحث إلى إبراز الحقائق في التّوافق والتّشابه بين الآيات القرآنيّة، والآيات التكوينيّة، فالله تعالى أنزل الكتاب بالحق، وخلق الخلق بالحقّ، والآيات دلائل ورسائل لوحدانيّة الله وقدرته، لا تعارض ولا اختلاف بين آيات الله في كتابه، وآيات الله في خلقه، فهما مِن مشكاة واحدة.

إنّ أدنى درجات السّعة في النّفس الإنسانيّة توقظ العقل إلى النّظر في ظواهر الكون المحيطة به، وإلى التدبُّر في الآيات القرآنيّة، لتعرّف العبد بالله وتزيده محبةً وطاعة وقربًا منه.

ستتجلّى كثير من الآيات في خلق الله وكتاب الله، لأنّ البحث والنّظر لا ينقضيان في كل عصر ومصر، وأولو الألباب لن يكلّوا ولن يملّوا، ثمّ لن يتفاجؤوا من التّوافق والتّرابط بين الآيات الكونيّة والآيات القرآنيّة.

أولو الألباب هم الذين يتدبّرون وينظرون ويستنبطون، ويوقنون أنّ القرآن لا تنقضي عجائبه، والكون كذلك لا تنتهي غرائبه، ومهما تكشف لنا ورأينا من آيات، فيبقى هناك آيات سيطلعنا الله تعالى عليها زمانًا فزمانًا، فالآيات لا تنفد وهي باقية ما بقينا، بل ما دامت السّموات والأرض.

إنّ صياغة أي حقيقة علميَّة ستكون في صياغتها أشبه ما تكون بالآيات القرآنيّة، أو كأنَّها هي، فالحقيقة العلميَّة تعادل وتساوي الآية القرآنيّة، وكلتاهما هاديتان إلى الله تعالى، أمّا الحقيقة العلميَّة فهي فعل الله تعالى، وأمّا الآية القرآنيّة فهي قول الله تعالى.

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين، وصلّى الله وسلَّم على سيدنا محمد ﷺ، وعلى آله وأصحابه أجمعين.

قائمة المصادر والمراجع

- القرآن الكريم (رواية حفص بن سليمان، لقراءة عاصم بن أبي النجود).

١- الإتقان في علوم القرآن، السّيوطيّ، المكتبة الثقافيّة، بيروت، ١٩٧٣م.

٢- أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني (ت٤٧١هـ)، تح: محمد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت. د. ط، د.ت.

٣- أسواق الذّهب، أحمد شوقي، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، ١٣٩٠هـ-١٩٧٠م.

٤- إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز، بديع الزمان النورسي، دار المحراب للطباعة والنشر، لا تاريخ.

٥- أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل، ناصر الدّين البيضاوي، مكتبة ومطبعة المشهد الحسيني، القاهرة. د. ط، د.ت.

٦- البحر المحيط، أبو حيّان الأندلسي الغرناطي، دار إحياء التراث العربيّ، بيروت، ط٢،

١٤١١هـ-١٩٩٠م.

٧- بدائع الفوائد، ابن قيّم الجوزيّة، دار الكتاب العربيّ، بيروت. د. ط، د.ت.

٨- تأويلات أهل السّنّة، أبو منصور الماتريديّ، مؤسسة الرسالة ناشرون، تح: فاطمة يوسف الخيمي، ط١، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م.

٩- التّذكار في أفضل الأذكار، القرطبيّ، دار الكتاب العربيّ، بيروت، ط١.

١٠- التعريفات، الجرجاني، دار السرور، بيروت، لبنان. د. ط، د.ت.

١١- تفسير أبي السّعود، دار إحياء التراث العربيّ، بيروت. د. ط، د.ت.

١٢- تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، طُبِع بدار إحياء الكتب العربيّة، عيسى البابي الحلبي وشركاه بمصر. د. ط، د.ت.

١٣- التفسير الكبير، الفخر الرازيّ، دار إحياء التّراث العربيّ، بيروت، ط٣.

١٤- تفسير النّسفي، دار الكتاب العربيّ، بيروت، د. ت.

١٥- تفسير جزء عم، الشيخ محمد عبده، مطبعة محمد صبيح بميدان الأزهر، ١٣٨٧ه-١٩٦٧م.

١٦- ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، للرمّاني والخطّابي والجرجاني، دار المعارف بمصر، ط٣.

١٧- جامع البيان عن تأويل آي القرآن (تفسير الطّبريّ)، ابن جرير الطّبريّ، دار ابن حزم، ١٤٣٤هـ-٢٠١٣م،

١٨- الجامع لأحكام القرآن، القرطبيّ (ت٦٧١هـ)، دار إحياء التراث العربيّ، بيروت.

١٩- الحكمة في مخلوقات الله عزّ وجل، أبو حامد الغزاليّ، مكتبة الجندي، مصر، ١٩٧٢م.

٢٠- ديوان لبيد بن ربيعة، شرح الطّوسي، دار الكتاب العربيّ، بيروت، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٤م.

٢١- روح المعاني، الألوسي، دار إحياء التّراث العربيّ، بيروت.

٢٢- السّيرة النبويَّة، ابن هشام المعافري (ت٢١٣هـ)، شركة الطّباعة الفنية المتحدة.

٢٣- عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات، زكريا بن محمد القزويني (ت٦٨٦هـ)، دار المعارف للطّباعة والنّشر، سوسة، تونس، د.ت.

٢٤- الفوائد، ابن قيّم الجوزية، المكتبة الثقافيّة، بيروت، ١٤٠٣هـ-١٩٩٣م.

٢٥- في ظلال القرآن، سيد قطب، دار إحياء التراث العربيّ، بيروت، ط٧، ١٣٩١هـ-١٩٧١م.

٢٦- قاموس القرآن، أو إصلاح الوجوه والنّظائر، الحسين بن محمد الدّامغاني، تح: عبد العزيز سيّد الأهل، دار العلم للملايين، بيروت، ط٥، ١٩٨٥م.

٢٧- الكشّاف، الزّمخشري، دار الفكر للطّباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٣٩٩ه-١٩٧٩م.

٢٨- لسان العرب، ابن منظور (ت٧١١هـ)، دار صادر، بيروت.

٢٩- المحـرّر الوجيز فـي تفسير الكتاب العزيـز، ابن عطيّة، مؤسسـة دار العلوم، الدوحة، قطر، ١٣٩٨ه-١٩٧٧م.

٣٠- المسند، الإمام أحمد بن حنبل، المكتب الإسلامي، بيروت.

٣١- معجـم مقاييس اللّغة، أحمد بن فارس بن زكريـا، تح: عبد السّلام هارون، دار الجيل، بيروت.

٣٢- المفردات في غريب القرآن، الرّاغب الأصفهاني، تح: محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، بيروت.

٣٣- مناهـل العرفـان في علـوم القرآن، محمـد عبد العظيـم الزرقانـي، دار إحياء الكتب العربيّة، عيسى البابي الحلبي وشركاه.

٣٤- موسوعـة الحديـث الشريـف الكتب السّتـة (صحيح البخـاري)، مكتبـة دار السلام، السعودية- الرياض، ط٤، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م.

٣٥- النّبأ العظيم، محمد عبد الله دراز، دار الرسالة العالمية، دمشق، ١٤٣٠هـ-٢٠٠٩م.

٣٦- نظـم الـدّرر في تناسـب الآيات والسّـور، البقاعـيّ، دار الكتب العلميّـة، بيروت، ط٣، ١٤٢٧هـ. -٢٠٠٦م.

٣٧- النّكـت والعيـون، الماوردي (ت: ٤٥٠ هـ)، دار الكتب العلميّة، بيـروت، ط٤، ١٤٤١ه-٢٠٢٠م.

٣٨- هذا القرآن، الشيخ محمد الغزاليّ، مجلّة الأزهر، رمضان ١٤٢٣هـ- آب ٢٠١٢م، السنة ٨٥.